صورة المُخَلّص المُنتظَر في التراث الأدبي الألخميادو – موريسكي

هشام بن سنوسي
جامعة جيجل

تشيع فكرة الاعتقاد بالمخلص، أو المنتظر في كثير من الديانات السماوية والوضعية، وفي كثير من المذاهب أيضا. لربما ما يتسع هذا الاعتقاد في المجتمعات التي تفكر تفكيرا ثيوقراطيا .. وبين شعوب قاست الظلم ورزحت كثيرا تحت نير الطغيان سواء من حكامها، أو من غزاة أجانب[1] لعلّ من أكثر الأسماء التي تقنّع بها المخلّصون في تلك الديانات والمذاهب، فإنّ ثمّة مهمّة واحدة لهم جميعا، هي ملء الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا، أو إقامة ملكوت اللّه، أو حكمه، أو دولته. أي إقامة فردوس أرضي لا موقع فيه للظلم أو الاستغلال أو الاستعباد[2]. وباستقراء المنجز الأسطوريّ الذي أبدعته المخيّلة البشرية، ولا سيما أساطير الموت والانبعاث، يخلص المرء إلى أنّ ثمّة جذورا لهذا الاعتقاد لدى كثير من المجتمعات والشعوب القديمة التي أبدعت ذلك المنجز.[3]

ولعلّ فكرة المخلّص أو المحرر في بعدها السياسي أو الديني الأسطوري تكون بمثابة القطعة الأساسية في ذلك الموزاييك الأدبي المعروف بالنبوءة؛ رغم ضبابية هذا الأخير في مفهومه، وكونه زئبقيا غير قار ..

ولعلّ المحنة التي مرّ بها المسلمون المنصّرون في الأندلس أيضا كانت باعثة على اليأس مما جعلهم يبحثون عن ملاذ لهم في الحيل المدهشة التي تمكنهم من احتمال الوضع وتمنحهم بعض المتعة والفرح؛ فقد انغمسوا في النبوءات أو كتب الجفر(AlJofores)أو (Alguacias). ويعد هذا الأمر من الأبعاد المدهشة والمثيرة للاستغراب في التراث الأدبي الموريسكي المكتوب بالحروف العربية كما أنّه يعد مثالا مثيرا للشفقة على التفكير الرغبي الجمعي، حيث تتظاهر الكتب التي تدعى كتب الجفر، المكتوبة بوضوح في القرن السادس عشر، بأنها مخطوطات قديمة ؛ رغم وجود استثناءات معينة تشذ عن القاعدة تتنبأ بمستقبل زاهر مزده بالنصر لمسلمي اسبانيا.

وباستخدام كتب الجفر _التي بات من الصعب على الباحثين تصنيفها وردها إلى حد الأنواع الأدبية؛ لأنها تدمج عناصر من الرواية والأدب والتاريخ _كان المسلون المنصّرون يحاولون فقط اعادة كتابة تاريخهم والتأثير في مستقبلهم، ومن النادر أن نجد موازيا لهذه التجربة الأدبية والانسانية التي حاول بها المسلمون المنصّرون .. ن يعيشوا حياة مختلفة عن حياتهم " كما يعرف أمريكو كاسترو، بصورة ملهمة, هذه التجربة.

إن مسلمي الأندلس كانوا بالكاد يعتقدون بصحة هذا الأدب الذي يتنبأ بالمستقبل (وهو أمر كان موضوعا للبحث والنقد)، ورغم ذلك فقد استثمروا معرفتهم بطريقة متفردة؛ كما استخدم المسيحيون، بمن فيهم رامون لول، هذا النوع الأدبي الصادر عن اليأس، طيلة العصور الوسطى وصولا إلى عصر النهضة، لكن أعظم مثال على هذا النوع[4] بدون أي شك ذو أصل أندلسي مسلم.[5]

ولقد ألمح مارمول كارفاخال(Luis Marmol Carvajal)الذي نسخ ثلاثة منها في كتابه(Rebelion y castigo de los Moriscos de granada) العصيان وعقاب موريسكيي غرناطة"[6] الدور الهام الذي لعبته هذه التنبؤات في تهيئة حرب البشرات؛ فقد كان المسلمون المنصّرون متأكدين من مساعدة السلطان العثماني، وهي عدات التي ذكرتها النصوص، والتي تحثهم على الذهاب إلى الحرب بدون خشية :" إنّ هؤلاء الملحدين يذيعون كل ذلك بإضفاء الثقة عليه؛ وهذا نتيجة السرية المفروضة على الشعب، وقد كان ذلك مجديا. إنّ هؤلاء الذين اختلقوا تلك الأكاذيب، كانوا يعتبرونها مؤكدة الحدوث، وإنّ كل ما تنبئوا به سيتم حدوثه كما يقولون."[7]

.و في هذه التنبؤات مظهران متعلقان بهذا النوع من الأعمال أحدهما: الأمل في تحقيق انتصار سياسي؛ والثاني الايمان بانتصار الإسلام : "إنّ الأتراك بمعية جيوشهم، سوف يتحولون إلى روما، وسوف لا يتم إلا انقاذ المسيحيين الذين يعتنقون دين محمد. أما الآخرون سوف يؤسرون أو يقتلون" [8]، ومن جهة أخرى نقرأ كذلك ".. ستقع فضائح، وسيتم تحالف بين عقيدة العرب وعقيدة المسيحيين، والناس جميعا سوف يرجعون إلى دين العرب."[9]

إنّ ظاهرة التنبؤ بالنسبة للمسلمين المنصّرين واقع ديني؛ والمهم من هذه الأخيرة هو ارتباطها بالقرآن أو بمحمد وهي في كلّ الحالات، من وحي قرآني. فالقرآن يعتبر المتمم للوعود التي جاءت في التورات والانجيل ككتابين مقدسين، واللّذين أعلن فيهما عن" .. مجيئ المكرم أحمد "[10] ومما لا شك فيه أن محمدا قد ظهر في كل النصوص الموريسكية "كخاتم لجميع الأنبياء"، ومع هذا فإن الشعب له الاعتقاد الراسخ أنّ رسلا عديدين سوف يظهرون في مجموعاتهم لشرح الهدف الخفي للوعظ القرآني، أو لكشف مصير شعب اللّه.

إنّ عددا من هذه التنبؤات تجد أصولها الأولى في محمد الذي كان قد تنبأ منذ قرون خلت بالمصائب والمحن التي ستنزل بالموريسكيين؛ وكان أول من أوحى بمجيء المخلّص.، وحسب ما أثبتته المحاكم الدينية أو دواوين التفتيش بطليطلة [11]، _ وهذا يدلل على مدى الاهتمام الذي كانت تحض به هذه التنبؤات لدى الديوان المقدس، وكذا شيوعها في أوساط الطائفة الكاثوليكية._فإن الرسول سوف يوجد في بعض أجزاء من آسيا وافريقيا، وذات يوم بكى الرسول، ولما سأله أصحابه عن أسباب ألمه، رد عليهم :" ..بأنه سيأتي زمان آخر يسترجع فيه المسيحيون جزيرة الأندلس من العرب، وإنّ هؤلاء لا يحتفظون إلا بغرناطة وحتى هذه المدينة، فسوف تنتزع منهم وأن بقية أتباع محمد وجب أن يتحولوا إلى مسيحيين وسوف يسلط عليهم كل أنواع العقاب، بما في ذلك النار".إلا أنّ الموريسكيين أو المسلمين المنصّرين ان عليهم أن يعلموا، أن كل التنبؤات قد تمت، وأنهم في آخر درجة من المحن؛ وهذا سيكون مبعثا للأمل والخلاص الذي يعود ليراود خاطر هذه الأقلية من جديد. وبالفعل فإن محمدا قد أنهى تنبؤه عندما وعدهم بإرسال من ينقذهم، ليبقى أمر التعرف عليه مهمة منوطين بها ".. غير أنّ الله سوف يخلق في هذا الزمان ابنا للجزيرة وأنّ أباه سيكون رجلا أصم ووالدته امرأة ذات عينان زرقاوتين، وأن أحد إخوته سيولد مختونا ".[12]

وهي كما نقرأ صورة للمخلّص المنتظر التي تمثل شخصية مجهولة تولد بجزيرة الأندلس في ظروف خاصة يكون بعضها خارقا؛ عجائبيا .

هذه الصورة تكون الأولى من نوعها التي أمكننا الظفر بها قبل ما يذكره أزناركاردونا من أن العرب الذين يعيشون في سيارا دي كورتاس آيأقوار (Sierra de Cortes y Aguar) ينتظرون قدوم أحد المحررين وسيكون الفاطمي، أحد شخصياتهم

هولة عندما كان يحارب الملك خايم (Jaime) " ..لقد كانوا يعتقدون ومازالوا متعلقين بنقل رواية مؤكدة، في مثل هذه الظروف، ومفادها أن العربي الفاطمي سوف يقدم ليحررهم ويقتل المسيحيين، وسوف يقدم على حصان أخضر ويتوغل في هذه الجبال ثمّ يختفي في الصراع ضد جيش دون خايم، في القرون الماضية."[13]

مهما يكن من أمر يبقى هذا الاسم من جملة الأسماء التي تقنع بها المخلّص المنتظر؛ زيادة على كونه شخصية مجهولة، فثمة دائما مهمة واحدة للجميع. هي اقامة ملكوت الله، بحكمه، فكلما كان الرجال في مواجهة يومية للحقيقة القاسية، فإنهم يحسون بالحاجة لتدخل سماوي في شؤونهم. [14] وباستقراء صورة العربي الفاطمي كمنجز أسطوري أبدعته المخيلة الشعبية الموريسكية ضمن أساطير الموت والانبعاث، نخلص إلى أنّ هذا المعتقد يعود ، إلى كثير من المجتمعات والشعوب القديمة التي أبدعت بدورها هذا المنجّز كتمّوز وأوزوريس، وأدونيس، وآخرين ..بوصفهم موتيفات غريزية كونية مختلفة، أو أنساق من السلوك والمعتقد الإنسانيين" [15] وباعتبارها رموزا أسطورية، فقد بقيت محلّ عمل دائب لا يتوقف، بمعنى أنها حفريات حيّة ومتجدّدة على الدوام. [16]

أما في تالافيرا(Talavera) وقبيل عملية الطرد، فإن أحد "الموريسكيين القدامى " قد أعلن في رفاقه "أنّه سوف يظهر سلطان كبير من العرب؛ وسيحميهم، وإنّ هذا الموريسكي يعرف شخصيا أن هذا السلطان سوف يأتي"[17] ونستطيع أن نميز انتقال صورة المخلّص لالمنتظر من حقلها الديني إلى حقل آخر سياسي لتتمظهر في صورة القائد أو الملك الفاتح لذي سيحقق انتصارا سياسي؛ ولعل سرّ التعلق بهذا المخلّص تبرره سخرية التقاطع الشديد ومعطيات الظروف السياسية، وكذا الحراك العسكري على جبهات متعددة آنذاك، الشيء الذي كان لينبأ ويعد بالكثير بالنسبة للمسلمين المنصّرين، لقد كانت كتبهم وقصصهم الشعبية تعد بفتح هذه الأرض (اسبانيا) من جديد وأن عرب المغرب سوف يفتحونها".. إنّ ساعة النجاة قريبة وسوف تأتي من شمال افريقيا وبجاية ووهران. وسبتة سوف تفتح أولا ثم بعد ذلك سيتم من جديد غزو اسبانيا، منتهجين اتجاه طارق، الذي سيفتح أمامهم بشكل خارق للعادة "وأنه في مضيق جبل طارق سيظهر جسر من جديد، وعن طريقه سوف يجتاز العرب ويتمكنون من غزو اسبانيا حتى قاليسيا"[18].

وإنه لمن الغريب بما كان أن تجد تلك التنبؤات طريقها إلى السلاطين والأمراء الذين اهتموا بالمشكل الموريسكي، ويقابلوها بشيء من التحري والتصديق ..ففي حدود سنة 1582 أحد المدجنين اللاجئين إلى تركيا من قبل سلطانها وهو الكسندر كاستالانو(Alexandre Castellano) أصيل كالاندا(Calanda) التأكد من بعض العلامات بقشتالة وبلنسية، ومشاهدة ما إذا كانت تلك العلامات ملائمة لما نصت عليه إحدى التنبؤات التي شاعت في تركيا والتي تتعلق بزمن إعادة فتح اسبانيا. وقد ذكر الكسندر كاستلانو أن زمن فتح اسبانيا من طرف الأتراك قد قرب، ذلك ان العلامات أو رات التي احتوتها احدى التنبؤات قد تمت آنذاك".. إنه في منطقة سيارا دي قالينيرا (Syerros de Gallinera) من مملكة بلنسية، ظهر شاب في مقتبل العمر، يختلف كثيرا عن أقرانه الذين يهملونه كثيرا وأنه خلال خمسة أو ستة شهور سوف يصبح يتيم الأب، وأنه خلال 28 أو 30 سنة سيصبح قائد الموريسكيين في هذه المنطقة وسينتصر كثيرا في الحرب". إن هذا الشخص "الغير متكافئ" قد اكتشف من قبل الكسندر كاستالانو، ويوجد بالفعل؛ ويتمتع بكل المميزات التي نصت عليها احدى التنبؤات، أما عدم التكافؤ فيتعلق الأمر ببنيته غير المتناسقة "فكل ساعد يشبه ساعدين، وكان كبيرا جدا وذا مخالب وفي كل يد توجد ستة أصابع"[19].

ويبدو أن المخيلة الموريسكية التي أبدعت مثل هذا المنجز الأسطوري؛ لم تغفل حاطة بأدق التفاصيل أو الميزات التي يتمتع بها. لأمر الذي جعل سرعة التصديق بها تصل إلى مداها الأقصى.

نرى إذن كيف أن هذه التنبؤات تعبر عن أصل ديني، وهي تؤكد أيضا الإيمان بمصير سياسي محدد، وهاذين العنصرين سوف يدمجان، ليصلا إلى حد الاقتناع بقرب انتصار الهلال على الصليب، وفي مقابل الرغبة في عالمية المسيحية، نجد نفس التطلع إلى اسلامية عالمية كما لاحظ ذلك بعض الباحثين.

وكان من غير المعقول أن تشيع مثل هذه النبوءات في تركيا وغيرها من البلاد الإسلامية بسرعة البارود دون أن تجد لها حضورا في اسبانيا، فقد انتشرت لدى المسيحيين بؤات مشابهة _ نت بسبب طبيعة المجابهة بين الطرفين على نقيض سابقتها_، تتنبأ

بانتصار المسيحية على الأتراك وتحويلهم إلى الدين المسيحي ..ونجد كذلك فكرة انتظار المنقذ أو المخلّص الذي أعلن باسم "المتستر" أو "المختفي":"..الذي سوف يقدم ليجلب النجاة للمسيحيين ويقضي على سلالة اقار، وعليه فإن ذريته سوف تسقط ويلحقها العار." إنّ شخص المتستر ، سمات غريبة يمكن أن تؤدي إلى مشابهته بدون خوان دو تريش(Don Juan d'Autriche)أو دي أوستريا".. إنّ المتستر يسمى هبسبورغ (Habsbourg)وسوف يسافر على متن باخرة، وهو ذو قامة جميلة وسحنة بيضاء، وكان يتكلم بالكلمة السهلة والصادقة وهو يحب العدل وعدو للعرب، تُجمله عينان زرقاوان وله مشية جميلة ويداه نظيفتان وبصمات يده واضحة جدا وملونة، وأصابعه ضامرة وأظافره جميلة قصيرة، وأعضاء جسمه رشيقة، ويتمتع بأخلاق نبيلة وهو يشبه الملك داوود في حياته[20]، وهناك نبوءة تنسب إلى الأمير "فرناندو" بن فيليب الثالث _ وهو الذي سيقال له الكاردينال الطفل _ تنسب إليه دور المنتصر على العدو المسلم.[21]

ومن السهل جدا أن نميز ذلك التقابل الساخر في الصور الذي يحكمه مبدأ التكافئ من عدمه؛ فصورة المخلص المنتظر في المتخيل الموريسكي تتناقض تماما والتي يختزنها المتخيل الاسباني، وذلك بشكل صارخ مشحـ ، بمعاني المجابهة والجدل الذي تعلوه لهجة انتقامية حادة.

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا سلمنا بما سلم به لويس كارداياك في مشروع دراسته عن الموريسكيين والمسيحيين، من أنّ ظاهرة التنبؤ تمثل أحد موضوعات المجادلة بين الطائفتين، فقد تبادلتا في كثير من الأحيان حججهم حول تأويل الطرد وما شابه، وقد صادف أن عمد المسلمون المنصّرون، بضرب من المواساة والعزاء لأنفسهم إلى استعمال تنبؤات القديسين الذين قرأوا لهم، ومن بين هؤلاء القديس ايسيدور(Saint Isidore) أسقف اشبيلية ..الذي سوف يتحول ضد المسيحيين، مؤكدا أنّ اللّه بجانبهم وأنه سوف يرسل ملكا قادرا على السيطرة على العالم :"..وأن أقل الاهانات التي ستلحق به، فإنّ الله سوف يأخذها على عاتقه وسيرسل ملكا يخضع العالم من أجل كلمة الله لا غير وحيث أن حصار المدن وهجمات المدافع لا يمكن أن تفيد شيئا."[22]

في الحين ذاته اعتقد المسيحيون أن هذا الملك :"..يجب ان يكون مسيحيا وسوف يأتي ليأخذ بيت المقدس أين سيتوفى وسوف ينتصر بفضل كلمة اللّه، وسينتج عن ذلك أكبر المصائب للمحمديين."[23]

ومن الغريب، أنّ بعضا من الموريسكيين كان لهم تعلق خاص بسان جاك-(Saint Jacques) وغيره ممن كانوا يعدون قديسين لدى بعض من المسيحيين، ويحترمونهم وعلى نصوص الدعاة الذين أطلقوا عليهم أولياء، متشبثين بالقول أنهم من أصل عربي، ويذهبون حتى إلى القول بأن الداعية سان جاك كان يسمى عليا."[24]، وعلى ضوء ذلك انتشر أدب فروسي ملحمي ألخميادو–موريسكي، كان قد جمع كلّ النصوص ذات الطابع الأخلاقي التراثي التقليدي، والتي اتخذت من أصحاب الرسول، أبطالا ومن بينهم علي، وترتكز هذه النصوص على ما يسمى بأدب السير والمغازي من جانب ، وعلى تقاليد أدب الفروسية من جانب آخر، كما يتجلى في كتاب "المغازي الموريسكي"، وأيضا كما بينه ألفارو قالماس دي فوينتيس(Alvaro Galmés de Fuentes) في طبعه لمؤلفه (المصدر المشار إليه سابقا) كتاب المعارك (El Libro de las Batallas) .

إنّ زعماء الأدب الفروسي و أبطال مغازيه الملحمية، أصبحوا يتحلون بروح الحماسة والمغامرة على شاكلة رولان، والسيد القمبيطور وآخرين..حتى أن حياتهم ومغامراتهم أصبحت بالفعل تترجم بحق عن مميزات كتب الفروسية والملاحم الاسبانية والفرنسية[25]" وبالنسبة للموريسكيين تلتقي كلمة حرب صليبية وجهاد في نفس المستوى، وبالنتيجة فإن سان جاك (قاتل العرب) الذي يعتبر بطلا للمسيحية، قادر على أن يتقمص مميزات علي، بطل الاسلام. ويبدو أن هذا الاختلاط بين ما هو إسلامي ومسيحي، كتقديم بعض جوانب النبي محمد في صورة المسيح عليهما الصلاة والسلام، مردّه تلك الظروف القاسية التي سمحت لبعض التقاليد والتعاليم النصرانية المفروضة، أن تتسرب إلى ما كتبوه[26]؛ وعليه بات علينا من السهل أن نهتدي إلى الطريقة التي عبرت فيها فكرة المخلّص المنتظر عن نفسها في الأدب الفروسي الملحمي أو أدب الجهاد (إلى جانب النبوءة) وإن كانت طريقة فيها كثير من المواربة والارتياب. حيث استغاثت المخيلة الموريسكية بشخصية علي وعاملت صفاتها _ كالبطولة الفذة والقدرة البدنية الخارقة _ معاملة عجائبية خارقة، فكانت ضمن شخصيات أخرى

واقعية تاريخية _ ذات نزوع مثالي _ يصنعها طابع الأساطير والمعجزات، بعد أن يغلفها الخيال الشعبي بذلك، فترفعها أحيانا إلى مراتب القديسين والأنبياء والخرافيين. حتى الأدب كان مندفعا تحت رغبة جنونية إلى المبالغة والتعالي، فصورهم وكأنهم من عالم آخر غير هذا العالم، جاءوا لمهمة واحدة هي تحقيق الخلاص المنتظر على شاكلة الاسكندر ذي القرنين الذي بعث ليحارب ملوك الأرض، ويحطم الأصنام ويقضي على عبادها.

هذه الشخصيات المحدودة العدد، التي طفت على سطح التاريخ الانساني، ليست إلا ت عبر بها الإنسان على مرّ الزمن عن تجربته منذ بدايتها في حضن العقيدة وفي امتدادها بعد ذلك إلى مستويات أخرى فيها تعبير عن معاني الحياة والموت والخلود والفناء، والشجاعة والخوف..ويمثل جزء منها البطل المنتظر الذي اكتسب معنى المنجي المخلّص، فمجيئه كان يكشف عن أحلام الجماعات آنذاك، وكان هذا التعبير ما يقابله على المستوى السياسي فقد اندفعت هذه الجماعات وراء زعماء ورموز قومية مثلت لها البطل المنتظر الذي يحقق المعجزة، أو القادر على اختراق الموت.

، المفارقات الساخرة أن هؤلاء الأشخاص الذين احتفى بهم الأدب أبلغ احتفاء، سى بالرغم عنه أنهم قد يكونون لا شيء في عالم الموريسكين المنكوب، الحاضر والمستقبل على السواء. ولعل أسطرة هذه الشخصيات يبرره رفض الذاكرة الموريسكية لذلك الطمس أوالمسخ الذي كانا يحاول أن يطالها.

ويلاحظ بأن الخيال الاجتماعي قد أسهم كثيرا في تشكيل مثل هذه الشخصيات النمطية التي باتت شائعة في السرد؛ وقد يكون التعبير عنها بداية ممكنة لتحولها إلى أسطورة (التي هي معرفة وسلطة وتاريخ للجماعة، وقصة أخلاقية تقوي تماسك الجماعة التي أنتجتها) لذلك نجد الصورة موازية للأسطورة، إذ لو قارنا بين اللّغة الرمزية التي تقدم عبرها الصورة واللّغة الأسطورية لتبينا أن الصورة مثل الأسطورة تمتلك القدرة على الرواية واحياء قصة ما وجعلها نموذجية، فتتحرك في الحاضر مثلما تحركت في الماضي. كما تمتلك القدرة على رسم شخصية خارقة؛ تحيط بها المبالغات والأوهام.[27]

ولأجل إضفاء التأييد ولعناية الإلهية في جانب أحد الطرفين المتجابهين، كشكل من أشكال التدخل السماوي الذي تفرضه حتمية المواجهة سوف تظهر هذه التنبؤات في شكل

علامات في السماء أو في النجوم والتقاء الأجرام، أو أوضاع خارقة للعادة أو معجزات مزعومة.

لقد كانت هذه الفترة تشهد تخوفا جديا أمام الخطر الذي كان يظهر على الحدود الفرنسية حيث كان الموريسكيون البلنسيون والاراغونيون ينسقون مع الفرنسيين لمساعدتهم على اجتياح الأراضي الاسبانية[28]، على عهد الملك اللوثري هنري الرابع (الثالث دو نافار) والتنبؤ بقرب اعتناق اسبانيا للمذهب البروتستانتي[29]. وكان الأتراك _كالعلج علي الحاكم العثماني بالجزائر_ يمثلون بدورهم خطرا ممكنا في مساعدة الموريسكيين يفوق الخطر الذي كان له المغاربة في الفترة السعدية، رغم تهويل الاسبان له[30]. ونذكر هنا استئناسا ما أورده أنطونيو شالدانيا عن المولى زيدان وقت مبايعته ملكا على فاس، حيث قال إن التنبؤات كانت تعلنه محررا وسيدا لممالك غرناطة ومرسية وبلنسية، وكان الجواب المنتظر من زيدان لا يختلف في الشكل والمضمون عن ذلك التنبؤ الذي بدأ به ملكه، وهذه المرة سنعثر في مذكرة خورخي دي هانين على ما يمكن أن نعتبره جوابا على ما ينتظر المولى زيدان "..الذي بادل الفقهاء الحديث قائلا أنه قد قرأ طالعه في تلك الليلة منجم عظيم، فأخبره أنه سيفتح اسبانيا بأكملها وأن اول معركة ستدور في قرمونة، وأن ملك اسبانيا سيفر هاربا وسيحتمي بطليطلة حيث سيقبض عليه، وهكذا ستخضع اسبانيا كلها لحكمه، ومن أجل ذلك لن يعطي لملك اسبانيا سوى أجل ستة أشهر. اللحظة التي أنها فيها كلامه أفلتت فجأة بغلتان من مرابطها واتيتا ركضا الواحدة تلو الأخرى ومرتا وسط الفقهاء والمولى زيدان. وعند مرورهما وسط الناس أخذ الحاضرون في رمي الأشياء في الهواء، وقد تركت ورائها هذه الحيوانات(من الفضلات) ما يتركه هذا النوع من البهائم، وذلك مرات عديدة. أما المولى زيدان المسكين فقد خجل كثيرا من جراء ذلك الانذار السيء، الأمر الذي أسكته وقتا غير يسير. ومن أجل تسليته، قال له الفقهاء ألا يحزن، فإن الشيطان قد تقمص شكل البغلتين لصرفه عن تنبؤه السعيد. ولما رأوه في ذلك الخجل الكبير، ودّعوه وانصرف المولى زيدان إلى بيته[31].

ويبدو أن المحرك الأساسي الذي كان يحرك المولى زيدان في وجهته المزعومة _وإن كانت له في ذلك نيّة طبعا !_ هي الرغبة الدفينة في قتال أخيه المأمون الذي ذهب فارا منه إلى اسبانيا واستقراره في تلك الآونة بمدينة قرمونة، بعد أن قام بتسليم العرائش للنصارى[32].

ومهما يكن من أمر فإن جملة المتاهات الخيالية التي سبح فيها المولى زيدان وغيره. كانت لها منطلقات في التطلعات الأخيرة التي كانت عند المسلمين المنصّرين الذين لم يفقدوا أمل رؤية اخوانهم المسلمين يأتون للوقوف بجانبهم ضد مضطهديهم. ولذلك كان الالتجاء إلى ما وراء الطبيعة لدى الكثيرين منهجا لحل المشكل الموريسكي.[33] أما بالنسبة للموريسكيين أو المسلمين المنصّرين فقد دفعتهم الحاجة دفعا إلى قبول الحماية من كل من اقترب منهم.

الهوامش :

(1) عبد الرحمن بسيسو، استلهام الينبوع،ط1،دار سنابل، بيروت.1983 :411.

(2) ينظر: باسم الهاشمي، المخلّص بين الاسلام والمسيحية،ط1، دار البيضاء، بيروت.1996 :50 وما بعدها.

(3) نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة،ط3، اتحاد الكتاب العرب، دمشق .2001: 134.

(4) The Legacy of Muslim Spain

(5) ينظر:لوسي لوبيز بارالت، التراث الاسلامي في الادب الاسباني، ضمن كتاب الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس، تحرير:سلمى الخضراء الجيوسي،ط2،مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. لبنان.1999.:1/778.

(6) Historiadores de Sucesos Particulares, B.A.E.,XXI,pp.169.174.

(7) Historiadores de Sucesos Particulares, B.A.E.,XXI,pp.174.

(8) المصدر نفسه: 170.

(9) المصدر نفسه: 173.

(10) المكتبة الوطنية بمدريد (ms 9653, f° 178 r°)

(11) A. H. N. Inq., leg. 197, n° 16

(12) المصدر نفسه.

(13) Aznar Cardona, op. cit., II, f° 11 r° y R. Ricard, Prophecy and messianism in the works of Antonio Vieira ,in Etudes sur l'histoire morale et religieuse du Portugal, paris, centro cultural portugués, 1970, pp.330.344. .

(14) R. Cantel, Prophétisme et messianisme dans l'œuvre d'Antonio Vieira, Paris, edicions hispano – americanas, 1960.

(15) نورثروب فراي، الأسطورة والرمز، ترجمة: جبرا ابراهيم جبرا،ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.1980: 05.

(16) ينظر: سيّد القمني، الأسطورة والتراث،ط1،دار سينا للنشر، القاهرة. 1992 : 21.

(17)A. H. N., Inq.,leg. 198, n°1.

(18) (A. H. N., Inq., leg 2603 I.

(19) Archivo de linstitula de valencia de Don Juan. Madrid, envio 1,p.163- B.Vincent :Historia de los moriscos, p.59.

(20) المصدر نفسه.

(21)T :Haperin Dongui :Un conflecto nacional :moriscos y cristianos viejos en valencia.Cuadernos de historia de España, Buenos aires, XXIII, XXIV 1995, XXV-XXVI 1957.P.11

(22) Guadalajara, Prodicion y destierro de los Moriscos de Castilla .,f° 77 r°.

(23) المصدر نفسه .f° 79 r°

(24) Haedo, op. cit.,t.I,p.152

(25) Alvaro Galmés de Fuentes,El libro de Las batallas (Narraciones Caballerescas aljamiado moriscas) Universidad de Oviedo,1967, p 10

وينظر: صلاح فضل، ملحمة المغازي الموريسكية،ط1، دار المعارف، القاهرة.1989

(26) ينظر: عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصّرون، أو الموريسكيون الأندلسيون، ط1، دار الصحوة، القاهرة، 1991.: 479.

(27) ينظر: ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون،2010: 22.

(28) A. Dominguez Ortiz y B. Vincent, Historia de los Moriscos, Madrid, Biblioteca de la Revista de Occidente1979, p.166 ،

(29) A. H. N., Inq., leg 196, n°6

(30) A. Dominguez Ortiz y B. Vincent, Op. cit p.179

(31) Jorge de Henin, Descripcion de los reinos de marruecos (1603-1613), Introduccion critica y anotacion de Torcuato Pérez de

Guzman, Rabat, Publicacion Instituto de Estudios Africanos, 1997.p.p. 109-110.

(32) A. G. S. legajo, E 2639.

(33) ينظر:الحسين بوزينب، البعد المغربي في السياسة الاسبانية تجاه الموريسكيين منذ عهد أحمد المنصور، ضمن أعمال ندوة الموريسكيون في المغرب، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط. 2001.: 48،49.